حـــول تبسيط

القراءة والكتابة ولغة التخاطب

ألقى هذه المحاضرة

الأستاذ عبد العزيز أمين عبد المجيد

بالقاعة الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة

خصومة علمية تلك التى دارت رحاها هذا العام بين فريق من الأدباء ورجال اللغة ، يرى فى النحو العربى وقواعده كما وصل إلينا فى كتب المتقدمين من النحاة ، وكما تواضعت عليه مناهج المعاهد المصرية ، « فلسفة حملت القدماء على أن يفترضوا ويسرفوا فى الافتراض والتعليل ، وإسرافا فى القواعد نشأ عنه إسراف فى الاصطلاحات ، وإمعانا فى التعمق العلمى باعد بين النحو وبين الأدب » . ويرى هذا الفريق ضرورة إحياء النحو وتبسيطه أو تيسيره — وبين فريق آخر من الأدباء واللغويين حريص على استبقاء تراثنا النحوى بفلسفته واصطلاحاته ؛ لما لهذا التراث من حرمة تاريخية وصلة بلغتنا وآدابنا وكتبنا المقدسة . ولأننا نحن المتأخرين لا نملك حق تغيير ما نص عليه المتقدمون من جهرة النحويين وعلماء اللغة الذين هم أقدر منا على فهم النحو وأسراره وفلسفته. وبين هذا الفريق وذاك فريق وسط يرى أن نحافظ على القديم بقدر ما تظهر صلاحيته ، وإلا هذبنا منه بما لا يغير من جوهره ولا ينبو عن متعارفه .

ومحاضر الليلة ينزل لأول مرة الميدان الاجتماعى فى مصر ، وله من شبابه

وتجاربه المحدودة ما يغفر له سهوه أو خطأه ، وهو لا ينتمى إلى هذا الفريق أو ذاك وإنما ينشد الحقيقة لذاتها بقدر ماتسمح به معرفته باللغة العربية مزودا بشيء من الثقافة الأوربية ناله خلال سبع سنوات أمضاها فى دراسات مختلفة فى التربية وعلم النفس واللغات الشرقية والغربية . فإن أصبت فبها ونعمت وإلا فيكفينى خلوص النية .

لاتلم كفى إذا السيف بنا صح منى العزم والدهر أبى

لاأريد هنا أن أعرض لتعريف النحو أو الصرف ، ولا لاختلاف النحاة فى أنهما علمان مستقلان أو علم واحد . فلا أعتقد إلا أن حضرات سامعى الكرام على علم بما قيل فى تعريف النحو والصرف ، غير أنى سأكتفى فى حديث الليلة بذكر كلمة « النحو » كلما قصدت النحو والصرف معا أو أحدهما .

أعرف النحو بأنه الوسيلة للقراءة الصحيحة ، والتخاطب الصحيح ، والكتابة الإنشائية الصحيحة . وأقصد بالصحيح ماهو متفق عليه بين متكلمى اللغة وعارفيها . وإذاً فكل مايهمنا من دراسة النحو أن تكون قراءتنا صحيحة ، وأن نتخاطب بعبارة صحيحة ، وأن نكتب كتابة إنشائية صحيحة ، ومتى وصلنا إلى هذه النتيجة فقد أدى النحو مهمته ، ولو أن هناك نوعا من السحر أو التعاويذ يمكننا من القراءة الصحيحة والتخاطب الصحيح والكتابة الإنشائية الصحيحة — لاستغنينا عن النحو وفلسفته ومصطلحاته ، ولكفينا أنفسنا شر الجدل والنقاش .

ولنبدأ إذاً بالقراءة الصحيحة لنعرف إلى أى حد نحن موفقون فيها ، وما هى عوامل الضعف ، وكيف نمحو هذه العوامل .

تمتاز اللغة العربية كغيرها من اللغات السامية بأن لأحرف العلة فيها — أعنى الواو والياء والألف — قيمتين صوتيتين : القيمة الصوتية الكاملة ، والقيمة الصوتية النصفية . فاذا قلت « ينام » فإن للألف بعد النون فى « ينام » قيمتها الصوتية العلية الكاملة . وإذا قلت « لم ينم » فإن هناك أيضا بعد النون فى ينم

حرف علة له قيمته الصوتية ولكنها نصف قيمة الألف فى « ينام » . ولذلك سميتها مؤقتا فى محاضرتى هذه « حروف العلة ذات القيمة الصوتية النصفية » . وتعارف علماء مخارج الحروف والقراءة والنحو على أنها حركات : حركة الفتح وحركة الضم وحركة الكسر .

فلنتقبل إذاً هذه التسمية ، ولنذكر دائما أن لكل حركة نصف القيمة الصوتية لحرف العلة الذى تمثله . ولست أستطيع أن أزعم أو أن أؤيد زعما بأن حروف العلة وجدت قبل الحركات أو العكس ؛ فمثل هذه الفروض لا تجدى ولا حاجة لنا بها هنا . وإنما يهمنى أن أذكر أن هذه الحركات — ويضاف إليها السكون — لها فى الإملاء العربى رموز تعبر عنها ، فهذا رمز الفتح ـَ ، وهذا رمز الكسر ـِ ، وهذا رمز الضم ـُ ، وهذا رمز السكون ـْ .

وقد اتفق واضعو الشكل على أن يكون الرمز فوق الحرف أو تحته . فلو أننى أستبيح لنفسى أن أكتب كلمة « ينام » كما أنطقها وبالحروف اللاتينية مثلا كما اصطلح عليه فى علم الأصوات Phonetics لمثلتها هكذا yanàm ، ولمثلت جملة لم ينم هكذا lam yanam . ولو حاولت محاكاة هذا النظام الإملائى الصوتى واستعملته فى لغتنا العربية فعوضت بدل الفتحة رمزا حرفيا خاصا يكتب بعد الحرف الصحيح ، وبدل الكسرة أيضا رمزا حرفيا آخر ، وكذلك الحال فى الضمة ، واستغنيت عن السكون إطلاقا فلم أجعل له رمزا ، لأمكننى إذاً أن أكتب العربية بحيث يستطيع كل قارىء أن يقرأها صحيحة متى قرأ بعناية .

ولكن لم أفترض وضع رموز للحركات بعد الحروف الصحيحة ، وقد اتفق علماء الشكل على وضع هذه الرموز فوق الحروف أو تحتها لا بعدها ؟ وأصبحت هذه خاصة من خواص الكتابة الإملائية العربية — كما هى الحال أيضا فى العبرية والسريانية — وإذاً أستطيع أن أقول لو أننا نستعمل دائما هذه الرموز

المسماة بالشكل فى كل مطبوعاتنا أو حيث يحتمل اللبس أو الخطأ — لأمنا الخطأ النحوى واللغوى فى القراءة . وهنا أتساءل : لم لاتتخذ نظام الشكل فى كل مطبوعاتنا وكتبنا وبخاصة ماهو منها فى متناول الأطفال حتى نسهل عليهم مئونة القراءة الصحيحة ؟ أليست الحركات جزءا من نطق الكلمة ؟ فما هو إذا ذلك التعسف التقليدى فى كتابة الحروف الصحيحة وحروف العلة فقط وإهمال حروف العلة « ذات القيمة الصوتية النصفية ؟ على أننى أستطيع أن أؤكد لحضرات السامعين أن التلاميذ فى مدارسنا المصرية لايجدون الآن صعوبة فى القراءة الصحيحة مادامت الكتب مشكولة . ومايقع من خطأ فى القراءة إنما هو نتيجة إهمال وعدم عناية من القارىء . وإذا فليس للنحو أو قواعده ذنب فيما يقع فيه القارىء من خطأ نحوى أو لغوى ، وإنما الذنب هو ذنب الوضع الإملائى والشكل فى لغتنا . ذلك الوضع الذى أصبح من مميزات لغتنا (١) .

وبعد ، فلو أننا نجحنا فى أن يكون كل ما يقرؤه الطفل أوجله مشكولا لكسبنا نصف المعركة ؛ ذلك لأن تعود القراءة الصحيحة منذ الصغر يعين على الكتابة الصحيحة والتخاطب الصحيح فينشأ الطفل وقد نما عنده شعور مكتسب بالتعبير النحوى الصحيح . ذلك الشعور الذى يقوى حتى يصير عادة لها أثرها فى صحة الكتابة والتخاطب .

ولننتقل إذا إلى التخاطب الصحيح (أعنى نحويا) . ومشكلة لغة التخاطب ليست قاصرة على العربية ، فهى مشكلة فى كل اللغات ، غير أنها تختلف قوة وضعفا بأختلاف عوامل سأعرض لها بعد هنيهة . والذى أريد أن أقرره هنا هو أن لغة التخاطب بين الفلاحين الفرنسيين أو الإنجليز أو الألمان تختلف كثيرا

(١) نشرت الصحف بعد إلقاء هذه المحاضرة أن مجمع فؤاد الأول اللغوى كون لجنة من أعضائه لبحث وضع نظام إملائى يمكن أن يستغنى به عن الشكل مع الاحتفاظ بالحروف العربية .

عن اللغة الأدبية لغة الكتابة الانشائية . ويظهر هـذا الاختلاف فى نطق الكلمات ، واستعمالها ، وتطبيق القواعد النحوية . وإنى لأذكر ماسمعته مرة من فلاح إنجليزى زرته ذات يوم فوجدته فى حجرة الجلوس مع ابنه وبيده كتاب مطالعة وهو يشير بإصبعه إلى صفحة فى الكتاب ؛ فسألته ماذا يعمل مع ابنه فقال : Ilearn'm يقصد بذلك Iteach him فاستعمل كلمة Learn بدل teach وكذلك يستعمل الإنجليزى العادى فى لغة حديثة عبارة Ihave not got notbing يريد Ihave notbing . ويظهر الخطأ النحوى متفشيا بين الفلاحين والعمال الألمال لأن النحو الألمانى يشبه فى صعوبته النحو العربى . ولذلك قل أن يستعمل العامل الألمانى فى لغة التخاطب الإضافة الصحيحة Genativ أو يحافظ على عمل الحروف (كحرف الجر مثلا) أو يعرف استعمالها الصحيح فهو يقول مثلا Ich gehe nach den Eltern فيستعمل nach بدلا من zu .

ومشكلة لغة التخاطب عندنا هى من نوع هذه المشكلات المعروفة فى اللغات الأخرى مع الفارق العظيم ، وهو أن لغة التخاطب فى العربية تختلف جد اختلاف عن لغة الكتابة الإنشائية ؛ فى نطق الكلمات واستعمالها ، بل فى النحو وهو مايهمنا هنا . على حين أن الفرق بين لغة التخاطب ولغة الكتابة فى اللغات الأخرى ضئيل جدا بالنسبة لذلك الفرق فى اللغة العربية . هذا إذا لاحظنا أن نحو اللغات الأخرى سهل جداً إذا قورن بالنحو العربى .

ومما لااختلاف فيه هو أن لغة التخاطب فى العربية قد أهملت النحو إهمالا تاما ، وأصبح فهمها لايحتاج إلى نحو . بل قد أصبحت فيها استعمالات خاصة لنفى اللبس فى الفهم ؛ وذلك كشيوع الجملة الاسمية بدل الفعلية ، مثال ذلك : « القطر قام بدل (قام القطر) ، الأولاد رجعوا من المدرسة ، النجار جه ، العربجى عاوز الفلوس ، القلم انكسر » . وفى كل هذه الجمل نلاحظ استعمال الجملة الاسمية بدل الفعلية . ولعل السبب فى شيوع الجملة الاسمية هو الإشارة إلى أن الاسم

هو المتحدث عنه والمقصود فى العبارة، ولتفادى اللبس الممكن فى بعض الأحيان كما فى جملة (الخدام ضرب البواب) فلو استعملنا الجملة الفعلية مع إهمال النحو لتلنا (ضرب الخدام البواب) ولكان فى هذا الاستعمال مايحتمل أن يكون الضارب (الخدام أو البواب)

ومهما يكن من الأمر فإن سبب هذا الفرق العظيم بين لغة التخاطب ولغة الكتابة الإنشائية فى العربية، وبالتالى إهمال النحو فى لغة التخاطب، هو الأمية السائدة فى الشعوب المتكلمة بالعربية، وجهل الأسرة بالقراءة والكتابة، وإذا فليست هناك وسيلة لنشر اللغة العربية الصحيحة واستعمال النحو فيها وإحلالها محل العامية لتكون لغة التخاطب، مادام الأمى لايستطيع القراءة ولايسمع إلا اللغة العامية، وإنا لنرى أولئك الذين ينالون قسطا من التعليم الأولى أو الابتدائى، لايلبثون أن يطمسوا فى المنزل معالم ماتعلموه فى المدرسة من عبارات التخاطب الصحيحة. ولذلك فإن جهود المدرسين المبذولة لإحلال اللغة الصحيحة محل لغة التخاطب العامية لم تنتج الإنتاج المنتظر منها.

ولكن هب أن عندنا أسرة متعلمة أخذت على نفسها أن تتكلم العربية الصحيحة لغة ونحوا، ورزقت هذه الأسرة ولداً ذهب إلى المدرسة حيث لا يسمع إلا التخاطب بالنحو الصحيح، وحيث لايقرأ الا صحيحا، إذاً لشب ذلك الولد يتكلم بالنحو الصحيح.

وبعد هذا المثال أستطيع أن أقول إن إهمال النحو العربى فى لغة التخاطب أو الخطأ النحوى فيها لايمكن أن نعزوه عزوا كليا إلى صعوبة النحو العربى وفلسفته وإمعان النحويين فى التعمق العلمى فيه.

على أننى لا أشك مطلقا أن استعمال النحو الصحيح فى لغة تخاطبنا ينمو يوما بعد يوم، وهو أكثر شيوعا بين طبقات المتعلمين منه بين من هم دونهم من الطبقات الأخرى. واستعمال النحو فى لغة التخاطب ليس أثرا لتذكر المتكلم

قاعدة النحو وتطبيقها كلما تكلم ، بل هو نمو تدريجى وعادة مكتسبة كسائر العادات الاجتماعية التى يحتاج الفرد فى تكوينها أولا — كما يقول علماء النفس — للنية والعزم والانتباه والتكرار ، ولكن بمرور الزمن تصبح طبيعة ثانية .

والآن وبعد معالجة ناحيتى القراءة الصحيحة والتخاطب الصحيح ، أجرؤ على استنباط النتيجتين الآتيتين :

النتيجة الأولى : ليس ضروريا للقراءة الصحيحة فى العربية أن يعرف القارىء قواعد النحو ومصطلحاته كما وصلت إلينا فى كتب المتقدمين ، مادامت الكتب مشكولة .

النتيجة الثانية : يمكن أن تكون لغة التخاطب صحيحة نحويا إذا نشأ المتخاطبون فى بيئة من اللغة العربية ، سليمة من الخطأ النحوى ، سواء أكانت تلك البيئة فى المدرسة أم فى خارجها . غير أن تعلم قواعد النحو ليس كافيا للتخاطب الصحيح .

ولما كانت سلامة البيئة من الخطأ النحوى مستحيلة الآن ، فقد دعت الحال لتعلم النحو كوسيلة للتخاطب الصحيح نحويا .

للمحاضرة بقية

عبد العزيز أمين عبد المجيد